تراث الإنسانية

الامتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

د. زكى نجيب محمود

الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب



مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

الامتاع والمؤانسة

الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

د. زكى نجيب محمود



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الإمتاع والمؤانسة
لأبى حيان التوحيدى
د . زكى نجيب محمود

كان أبو حيان التوحيدى بائسا فى حياته وبعد مماته ، أما فى حياته فقد عاش فقيرا ، وأما بعد موته فلم يجد من المؤرخين من يترجم له ترجمة وافية ، وذلك برغم اتساع آفاقه وعمق أغواره ، حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ؛ فاسمع هذه الرسالة الحزينة التى يختم بها الجزء الثالث من كتاب الامتاع والمؤانسة ، موجها اياها الى صديقه أبى الوفاء المهندس الذى كان له فضل تقريبه من الوزير أبى عبد الله العارض وهو الوزير الذى قيلت فى حضرته أحاديث السمر الثقافى التى جمعت فى كتاب الامتاع والمؤانسة ـ اسمع هذه الرسالة الحزينة التى يختم بها أبو حيان كتابه هذا ، فهو يقول : « خلصنى

أيها الرجل من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اشترني بالاحسان ، اعتبدني بالشكر ٠٠ اكفني مؤونة الغذاء والعشاء ؛ الى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الزاوية ، والقميص المرقع ٠٠ ؟ الى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ ٠٠٠٠ اجبرني فانني مكسور ، اسقني فانني صد ، أغثني فانني ملهوف ، شهرني فانني غفل ، حلني فانني عاطل ؛ قد أذلني السفر من بلد الى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ، ونكرني العارف بي . وتباعد عني القريب مني ٠٠٠ » ٠

ولعل أبا الوفاء المهندس قد استجاب الى استغاثة أبي حيان فأغاثه ، بأن قدمه الى الوزير أبي عبد الله العارض ، فجعله الوزير من سماره ، وسامره أبو حيان ثماني وثلاثين (١) ؛ وبعدئذ طلب أبو الوفاء من أبي حيان

---

(١) في نشرة الكتاب التي أصدرها المرحومان الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين ، ذكريات أربعون ليلة . وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ أحمد أمين ورد ان الليالي عددها سبع وثلاثون ، لكني عددتها فوجدتها ثماني وثلاثين ، ذلك أن الليلتين العاشرة والحادية عشرة قد أدمجتا في ليلة واحدة ، ثم جاء العدد الترتيبي بعد ذلك يقول « الليلة الثالثة عشرة » ، ولم تذكر الليلة الثانية عشرة . وقد بلغ العدد الختامي في النشرة السالفة الذكر « أربعين ليلة » ، فاذا طرحنا الليلة الحادية عشرة المدمجة في العاشرة ، والليلة الثانية عشرة المتروكة ، كان العدد ثماني وثلاثين ٠ هذا من حيث عدد الليالي بحسب تقسيم الكتاب أما من حيث عددها من حيث المحادثة ، فقد كانت ــ على حسابي ــ تسعا وثلاثين ٠

أن يسجل كل ما دار بينه وبين الوزير ، وهكذا فعل أبو حيان ، فكان من ذلك هذا الكتاب الذى نقدمه ·

وقد حقق الأستاذ أحمد أمين فى مقدمته لهذا الكتاب شخصية هذا الوزير وانتهى الى أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى ، وقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وظل ابن سعدان فى الوزارة الى سنة ٣٧٥ ؛ وقد كان له ابان وزارته ندوة يجمع فيها العلماء والأدباء ، منهم ابن زرعه الفيلسوف النصرانى ، ومسكويه ، وأبو الوفاء المهندس (الذى قرب أبا حيان من مجلس الوزير) ·

وأما أبو الوفاء المهندس ، الذى من أجله كتب كتاب الامتاع والمؤانسة ، فقد قال عنه ابن خلكان « انه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ··· وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفى سنة ٣٧٦ » وعلى هذا التاريخ يعلق الأستاذ أحمد أمين بقوله ان ابن خلكان قد ذكر أنه نقل تاريخ الوفاء هذا من شيخه ابن الأثير ، ولكن الذى فى ابن الأثير أنه عد وفاته فى حوادث سنة ٣٨٧ فاما أن ابن خلكان أخطأ فى النقل أو أن الناسخ أخطأ فى الكتابة ·

وانه ليقال ان أبا حيان قد ألف نحو عشرين كتابا ،

لكن لم يبق منها الا عدد قليل ، منهـا كتـاب « الهوامل والشوامل » (نشرة الأستاذان أحمد أمين والسـيد أحمد صقر) و « الصداقة والصديق » و « البصـائر والذخائر » (نشره الأستاذان أحمد أمين والسـيد أحمـد صـقر) و « المقايسات » و « الاشارات الالهية » (نشرة الدكتـور عبد الرحمن بدوى) ـ وكتاب « الامتـاع والمؤانسـة » الذى نقدمه بهذا المقـال ، وقد ألفه لابن سعدان ـ كما قلنا ـ سنة ٣٧٤ ؛ والظاهر أن أسبقها تأليفـا هو الهوامل والشوامل (راجع مقدمة احمد أمين للهوامل والشوامل ـ ص : ى) وتبعه الامتـاع والمؤانسـة ، ثم الصداقة والصديق . وأما الذخائر والبصائر فقد ذكر فى مقدمته انه بدأ به سنة ٣٧٥ وأتمه بعد خمسة عشر عاما ، ثم جـاء كتاب المقايسـات ، لأنـه ذكر الهوامل والشـوامل فى المقابسات ، وقد ألف الصداقـة والصـديق للوزير ابن سعدان ابان وزارته ـ ووزارته من ٣٧٣ الى ٣٧٥ .

يدور السمر فى كتاب الامتاع والمؤانسة على ليال ، لكل ليلة موضوع رئيسى يحدده الوزير بسؤال يلقيـه لكن سرعان ما يستطرد ويتشعب فيتنـاول أمورا كثيرة منوعة ، وغالبا ما يختتم « بملحمة وداع » ـ وفيما يلى موجز سريع لأهم ما دار من أحـاديث خلال الليـالى الثمانى والثلاثين .

ـ ففى الليلة الأولى جرى السمر حول متعة الحديث ، وخصائص الحديث الجيد ؛ وخلاصة الرأى هنا أن الحديث

الجيد هو الذى يجرى على أحكام العقل ويشتمل على فكاهة ، ويكون ذا جدة وطرافة ؛ وان الانســان ليسـأم من كل شيء الا من الحديث الطلى ؛ ففى المحــادثة تلقيح للعقول ، وترويح للقلب ، وتسريح للهم ، وتنقيح للأدب ؛ وأما الموضوعات العرضية التى تناولها الكلام فى الليلة الأولى ، فتحديدات لغوية تفرق بين معنى كلمة « عتيق » ومعنى كلمة « قديم » وذلك بمناسبة المقــارنة بين الحديث الذى يكون فيه جديد والحديث الذى يذكر القديم ؛ « التعجب كله منوط بالحديث ، وأما التعظيم والاجلال فهما لكل ما قدم » ؛ وكذلك تنــاول أبو حيان بالتحديد معانى هذه الكلمات : حادث ، ومحدث ، وحديث ؛ واخيرا ختمت الليلة بملحمة الوداع ، وهى نكتة عن بناء بنى جدارا لرجل ، وبينما هما مختلفــان على الأجر ، سقط الجدار ، فقــال الرجل للبنــاء : هذا عملك الحسن ؟ فقــال البنــاء وهل أردت أن يبقى الجدار قائما الف سنة ؟ فأجاب الرجل : لا ، ولكن كان يبقى الى أن تستوفى أجرتك .

— ويدور حديث الليلة الثانية حول شخصيات بارزة عندئذ فى العلم والأدب ، يصفهم أبو حيان للوزير ويقول رأيه فيهم ، فمنهم أبو سليمان المنطقى الذى يقول عنه : « أما شيخنا أبو سليمان فانــه أدقهم نظــرا ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبــارة ، ولكنه ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن

استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز » ٠

٠ ومنهم ابن زرعه ، فهو « حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة » ومنهم ابن الخمار ، وابن السمح ، والقومسى ، ومسكويه الذى يصفه بقوله : « فقير بين أغنياء ، وعيى بين أبيناء ، لأنه شاذ ٠٠ » ومنهم عيسى بن على ، ونظيف ، ويحيى ابن عدى ، ويقول عنه : « انه مشوه الترجمة ردىء العبارة ، ولكنه كان متأنيا فى تخريج المختلفة ٠ : » ـ أى فى تخريج المسائل المختلفة ٠

فطلب منه الوزير أن يحدثه عن آراء هؤلاء العلماء فى « النفس » فأخذ أبو حيان يفصل القول فى ذلك ، وملخص ما قاله أنهم متفقون على أن النفس جوهر خالد ؛ وكان من أدق ما قاله كذلك فى العلم بمسائل الحكمة أنه وسط بين اليقين الكامل وبين اليأس من المعرفة ؛ وكذلك قال فى علم الطب انه وسط بين الصواب والخطأ ، وفى الحياة أنها وسط بين السلامة والعطب ، وكذلك فرق أبو حيان بين العلم والتعليم ، « فالعلم صورة المعلوم فى نفس العالم ، وأنفس العلماء عالمه بالفعل ، وأنفس المتعلمين عالمه بالقوة ، والتعليم هو ابراز ما بالقوة الى الفعل ، والتعليم هو بروز ما هو بالقوة الى الفعل » ـ وختمت الليلة بأربعة أبيات فى المنزل ٠

وفى الليلة الثالثة يدور الحديث عن بعض رجال السوء : فبهرام « رجل مجوسى معجب ذميم ، لا يعرف الوفاء ولا يرجع الى حفاظ » وابن كخيا « رجل نصرانى أرعن خسيس ، ما جاء يوما بخير قط لا فى رأى ولا فى عمل ولا فى توسط » هكذا .

ـ وتدور الليلة الرابعة كلها تقريبا على الحديث عن ابن عباد ، يسأل الوزير أبا حيان رأيه فى ابن عباد وما يقال فى ذمه أحيانا ، فيقول أبو حيان « ان الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان .. » ويمضى فى تحليل شخصيته تحليلا مسهبا ، ويقول عنه انه يمدح نفسه بشعر ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من سواه ، فهو محب للثناء لدرجة الاسراف ، وهو مزيج من عقل وحمق ؛ ويأخذ أبو حيان فى مقارنته بابن العميد ؛ ويصف ابن عباد بمرض النفس « فللنفس أمراض كأمراض البدن » ؛ وهكذا أعطانا أبو حيان صورة مفصلة عن جوانب ابن عباد : فضائله وعيوبه ، ومما ورد فى هذه الليلة كذلك ذكر لأعلام العلماء والأدباء وما يمتاز فيه كل منهم ؛ فالخليل فى العروض ، وأبو عمرو بن العلاء فى اللغة ، وأبو يوسف فى القضاء ، والاسكافى فى الموازنة ، وابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وابن مجاهد فى القراءات ، وابن جرير فى التفسير ، وأرسطو طاليس فى المنطق ، والكندى فى الجوهر الفرد (الجزء الذى لا يتجزأ)،

وابن سيرين فى العبارة ، وأبو العيناء فى البديهة ، وابن أبى خالد فى الخط • والجاحظ فى الحيوان •• الخ •

ومن أصدق ما جاء فى حديث هذه الليلة ، قول أبى حيان بضرورة التثقيف لمن يتصدى للكتابة الأدبيـــة مـع التواضع فى تقديره لنفسه ، قال : « ليس شىء أنفع للمنشىء من سوء الظن بنفسه ، والرجوع الى غيره ، وان كان دونه فى الدرجة ، وليس فى الدنيا محسوب (أى ليس فيها أحد) الا وهو محتاج الى تثقيف، والمستعين أحزم من المستبد •• » ومن لطيف ما قاله فى التفرقة بين كتاب يكتب وحديث يقال ، أن الكاتب لا يشفع لـه خطـــأه أن يكون قد أسرع فى الكتابة ، فليس يعلم القارىء أسرعت فى كتابة ما كتبت أم أبطأت « وانما ينظر أصبت فيه أم أخطأت وأحسنت أم أساءت » •

ـ وفى الليلة الخامسة عود الى الحديث عن ابن عباد ، ثم الحديث عن أبى اسحق الصابى : أما ابن عباد فقد نجح رغم عيوبه لأن أحدا لا يقول له أخطأت ، فمن كان مجدودا جعل الناس خطأه صوابا ، وأما أبو اسحق الصابى « فانه أحب الناس للطريقة المستقيمة •• وانمـا ينقم عليه قلة نصيبه من النحو » •

ـ وأما الليلة السادسة فحديثها عن خصائص الأمم : فالفرس تقتدى ولا تبتكر ، والروم لا يحسنون الا البنـاء والهندسة ؛ والصين أصحاب صنعة لا فكر لها ولا رواية ، والترك سباع للهراش ، والهند أصحاب وهم وشعبذة ،

وأما العرب فقد علمتهم العزلة التفكير ، وساعدتهم بيئتهم على دقة الملاحظة ، وهم ذوو قيم خلقية عليا ٠

ومن رأى أبى حيان أن الفضائل موزعة بين الأمم ، واذا وصفت أمة بفضيلة أو برزيلة فلا يكون ذلك الا على سبيل التعميم فى القول ، ولذلك اذا أريدت مقارنة بين أمة وأمة وجب أن يفاضل بين الكامل فى كل منهما أو بين الناقص فى كل منها ؛ وان تعصب الانسان لقومه ليجعل من العسير عليه أن يقول أى الأمم أفضل من سواه ، فلكل أمة عصر تعلو فيه ثم يجىء عصر آخر فتعلو أمة أخرى ، وهكذا ، وليس من الانصاف أن نقارن أمة ابان صعودها بأخرى ابان هبوطها ٠

على أن أبا حيان يعود فيخص العرب بالثناء ، ويتناول بحديثه اللغة العربية فيقول انه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد فى أى منها « نصوع العربية ، أعنى الفرج التى فى كلماتها ، والفضاء الذى نجده بين حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها ٠٠ الخ » ؛ ويتصدى أبو حيان لما قاله الجيهانى فى ذم العرب ، ليتولى الدفاع عنهم أمجد دفاع وأبلغه ٠

ـ وفى الليلة السابعة مقارنة بديعة بين علم الحساب والبلاغة أيهما أنفع ـ أو قل بين العلوم الرياضية وفنون الأدب ـ فقد كان هناك من فضل الأولى على الثانية ، لأن الأولى جد والثانية هزل ، والأولى مستندة الى مبدأ

موصولة بغاية وحاضرة الجدوى ، أما الثانية فزخرفة وحيلة ، والأولى شبيهة بالماء والثانية شبيهة بالسراب ولئن اكتفت الدولة بكاتب واحد ، فلا يكفيها مائة محاسب .

ويرد أبو حيان بقوله لا غنى للحساب نفسه عن الانشاء ؛ وان البلاغة مستندة الى عقل ، لأن بها تقام الحجة ؛ فهى تبدأ بأفكار عقلية ثم تمر خلال ألفاظ ، وأخيرا تستقر فى خط ؛ وأما أن الدولة يكفيها منشىء واحد فليس حجة على شىء ، لأننا نحتاج الى خياطين أكثر مما نحتاج الى أطباء ، ولا يدل ذلك على أن صناعة الطب دون صناعة الخياطة ، وليس صحيحا أن الكلام الملحون يؤدى المعنى لأن المعنى يتغير دائما بتغير الاعراب .

ـ أما الليلة الثامنة فقد رويت فيها مناقشة فلسفية دقيقة عميقة كانت قد دارت بين أبى سعد السيرافى وأبى بشر متى بن يونس القنائى فى حضرة الوزير ابن الفرات عن المنطق اليونانى والنحو العربى (وهى مناقشة وردت ايضا فى كتب المقابسات لأبى حيان التوحيدى) وخلاصة الرواية أن الوزير ابن الفرات كان قد سأل مجالسيه ذات يوم ان كان بينهم من يستطيع أن يتصدى لمناظرة أبى بشر متى فى المنطق ، فانه يقول أن « لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين الا بالمنطق » ؛ فاستجاب أبو سعيد السيرافى لدعوة الوزير ثم واجه متى فقال :

حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فقال متى : أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فاني أعرف به الرجحان من النقصان ؛ فقال أبو سعيد ردا على ذلك ان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث بالعقل ؛ وكأنما أبو سعيد يريد بذلك أن يقول ان صورية المنطق وحدها لا تغني ، اذا لابد من معرفة بحقائق المواد المرتبط بعضها ببعض بتلك الصور ؛ والتشبيه بالميزان ناقص ، لأن من الأشياء مالا يوزن ؛ واذا كان المنطق الأرسطي ملزما لمن يتكلم اللغة اليونانية فليس هو بملزم لمن يتكلم العربية .

فيرد متى قائلا ان المنطق يعني بالمعقولات ، والناس في المعقولات سواء ، فأربعة وأربعة تساوي ثمانية عند اليونان وعند العرب وعند غيرهما من الأمم على السواء ، فيعود أبو سعيد الى الكلام قائلا : ان التشبيه بأربعة وأربعة وأنها تساوي ثمانية عند كل الأمم هو تشبيه لا يؤدي، لأن حقائق الرياضة بينة ، على خلاف المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ، على أننا اذا كنا نعني بالمعقولات تلك المعاني التي يوصل اليها باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، فقد لزمت الحاجة الى معرفة اللغة ، فكيف ندرس منطق اليونان دون لغتهم ، فضلا عن أننا ننقل المنطق اليوناني عن اللغة السريانية ، والمعاني انما

يصيبها التحول عند الترجمة من لغة الى لغة ؟ وهنا يقول أبو بشر متى ان الترجمة عن اليونانية تكفينا فى هذا الصدد ، ويعود أبو سعيد الى الرد قائلا : افرض أن الترجمة تكفينا فى ذلك ، فهل اختص اليونان دون سواهم بالعقل ؟ أليس العلم مقسما بين الأمم ؟ أليس اليونان كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون ، ومع ذلك فليس واضع المنطق أمة بأسرها ، بل هو رجل واحد ، هذا الى أن منطقه لم يغير من العالم شيئا ، لأن الأمر مرهون بالفطرة ، وحال الناس من حيث الفطرة هى بعد ظهور المنطق كما كانت قبل ظهوره ، اننا نعلم أن عقول الناس متفاوتة فكيف تزعم أن فى وسع المنطق أن يسوى بينها جميعا ؟

ويسأل أبو سعيد مناظره فيقول : هل فى وسع المنطق الأرسطى أن يدلنا على معانى حرف الواو فى اللغة العربية ؟ فقال له متى : هذا نحو وليس هو من شأن المنطق ، فأجابه أبو سعيد بأن المنطق هو نحو والنحو هو منطق » فاذا كانت المعانى مشاعا بين الأمم ، فلا تكون يونانية ولا هندية ، وانما يكون الاختلاف فى اللغة التى يعبر بها كل قوم عن تلك المعانى ، اذن فدراسة اللغة لا مندوحة عنها ، ويضرب أبو سعيد مثلا بالحرف فى اللغة العربية : الواو والباء وحرف « فى » فلكل منها أحكام تقضى بها قواعد اللغة العربية ، وليست هى

نتاجا للعقل اليونانى ، مما يبين أنه لا بد للمنطقى من دراسة اللغة التى بها يكون التفكير ، فالنحو يمس المعانى ولا يقتصر أمره على اللفظ ٠

انه بغير مادة الفكرة لا يوصل الى حل لأى مشكلة ، فالمنطق فى صوريته المجردة لا يرفع خلافا بين متناظرين ولا يؤدى بصاحبه الى معتقدات بعينها ، وخلاصة القول عند أبى سعيد السيرافى أن دراسة المنطق دون دراسة اللغة العربية لا تجدى نفعا ٠

وبعد الفراغ من هذه المناقشة الفلسفية ينتقل الحديث فى تلك الليلة الثامنة الى وصف لشخصية أبى سعيد السيرافى والى آخرين غيره كأبى على النحوى ، وعلى بن عيسى وطائفة من الشعراء ، ثم يتناول الحديث مسكويه ، وابن نباتة وغيرهما ، فكأنما هى سجل حافل لحركة علمية ثقافية واسعة المدى ٠

وفى الليلة التاسعة أوصاف دقيقة لصنوف الحيوان وما تتميز به ، وكيف أن صفات الحيوان موجودة مثلها فى الانسان ، اذ فى الانسان وحده تتجمع صفات الحيوانات كلها ، فهو اذن مختلف عنها لا بالنوع ولكن بكثرة ما فيه من صفات ، تجمعت فيه وتفرقت فى الحيوان ؛ فللسبع والفارة صفة الكمون ، وللذئب صفة الثبات ، وللخنزير صفة الحذر ، وهكذا ، وانظر مثلا الى الصفات

التى لا بد من توافرها فى القائد تجدها كلها مما يتصف به الحيوان أيضا : « ينبغى للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركى ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن « بعروا » ـ وهى دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء » ٠

نعم ان من أهم ما يفرق بين الحيوان والانسان أن الأول يعمل مدفوعا بالهام على حين أن الثانى يعمل بعد اختيار ارادى منه ، لكن للانسان من الهام الحيوان نصيبا ، كما أن للحيوان من اختيار الانسان نصيبا ٠

وذكر أبو حيان أن للانسان أنفسا ثلاثا : النفس الناطقة ، والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية ، وأن لكل نفس منها أخلاقها ، فمن خصال النفس الناطقة أن تبحث عن حقيقة الانسان والكون والله ، وكذلك من وظائفها أن تضبط نوازع النفسين الأخريين ، وبعد ذلك أخذ أبو حيان يتناول الفضائل وأضدادها واحدة واحدة ليحدد مقوماتها وعناصرها ، فما الحسن وما القبيح ؟ ما الصواب وما الخطأ ؟ ما الخير وما الشر ؟ ما العدل وما الجور ؟ ما الشجاعة وما الجبن ٠٠ الخ ٠

ويختم أبو حيان القول فى الأخـــلاق بأن يصنف الناس من حيث أخلاقهم بحسب أمــزجتهم ، فاذا غلبت الحرارة على الانسان كان شجاعا بذالا ملتهبـــا سريع الحركة والغضب قليـل الحقـد زكى الخـاطر حســـن الادراك .

واذا غلبت عليه البرودة كان بليداً غليظ الطبــاع ثقيل الروح .

واذا غلبت عليه الرطوبة كان لين الجـــانب سمح النفس سهل التقبل كثير النسيان .

واذا غلبت عليه اليبوســة كان صــابراً ثابت الرأى صعب القبول .

ومما هو جدير بالذكر عن هذه الليلة أن أبا حيــان يذكر فيها أنه قد أضاف من عنده عند الكتابة ما لم يرد فى غضون الحديث ، وذلك استكمالا للموضوع .

ـ وفى الليلتين العاشرة والحادية عشرة قرىء بحث عن خصائص الحيوان ، منها ما هو فسيولوجى ومنهــا ما هو متصل بالطباع .

ـ وفى الليلة الثالثة عشرة (٢) قرىء بحث فلسفى عن النفس ، فهى تعمل بغير عضو خاص (من أعضاء البدن ، ولذلك فهى لا تفسد بفساد البدن ، هى جوهر لا مادى ، وغير قابل للمقاييس الكمية ، ينتقل الحديث الى الحركة ، فهى اما من داخل : وعندئذ تكون اما حركة داخلية متواصلة واما حركة داخلية تسكن أحيانا ، أو من خارج : وعندئذ تكون اما حركة بالدفع من خلف أو بالجر من أمام ، وحركة الجسم الانسانى انما تكون بفعل نفس ، واذن فالنفس حية ، وهى جوهر قابل لأن تطرأ عليه الأضداد دون أن يتغير هو فى جوهريته ، وقوام النفس بذاتها لا بكونها حالة فى بدن ، ومن الفوارق بين الجسم والنفس أن الجسم لا يقبل صورة الا اذا زالت عنه الصورة التى كانت حالة فيه ، لأن الضدين لا يجتمعان فيه ، أما النفس فتقبل الصور الأضداد دفعة واحدة .

ـ أما الليلة الرابعة عشرة فتبدأ بمعنى السكينة وأنواعها ، فهناك سكينة طبيعية وأخرى نفسية وثالثة عقلية ورابعة الهية ، أما الطبيعية فهى اعتدال المزاج فى

---

(٢) قد رتبت خطأ فى نشرة الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين بحيث جعلت الليلة الثالثة عشرة ، ثم تتابع الخطأ فى العدد الترتيبى بعد ذلك الى نهاية الكتاب بأجزائه الثلاثة ـ وحقيقتها أنها الليلة الثانية عشرة ، لكننا نؤثر الابقاء هنا على الترتيب الموجود فى الكتاب لسهولة المراجعة .

العناصر الطبيعية ، وأما النفسية فهى ما نسميه بالروية حين تأتى مماثلة لحكم البديهة ، والسكينة العقلية هى فى التئام الخواطر والأفكار ، وأما السكينة الالهية « فلا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحلم فى الانتباه ، وكالاشارة فى الحلم ، وليست حلما ولا انتباها فى الحقيقة » أى أنها سكينة روحانية ٠

وبعد ذلك ينتقل الحـــديث الى ما تشترك فيه الأمم وما تختلف فيه من صفات وخصائص ، فكلها مشترك فى الفطرة الواحدة ، وتأتى بعد ذلـــك أوجه الاختـــلاف ، فاليونان يميزهم الفكر ، والهنـد يميزهم الوهـم (أى الخيال) والعرب ميزتهم الفصاحـــة ، والفرس السياسة ، والترك الشجاعة ٠

ـ وفى الليلة الخامسة عشرة حـــديث فلسفى عن « الممكن » و « الواجب » حـكى فيه التوحيدى عن ابن يعيش الرقى رأيه فيهما ، فقـــال : « الممكن شبيه بالرؤيا لا بدن له يستقل به ، ولا طبيعة يتحيّز فيها ٠٠ وكما أن الرؤيا ظل من ظلال اليقظة ، والظل ينقص ويزيد اذا قيس الى الشخص ، كذلك الممكن ظل من ظلال الواجب ، فطوراً يزيد تشابها للواجب ، وطوراً ينقص تشابها للممتنع ، وطـوراً يتساوى بالوسط » والواجب (ويقصـــد بــــه فى المصطلح الفلسفى ما هو ضرورى الوجود) لا عرض له ، لأنه حد واحد ، وله نصيب من الوحدة بدليل أنه لا تغير

له ولا حيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقـــل » .. الخ . ثم ينتقـــل الحديث بعد ذلك الى نقطة فلسفية أخرى ، هي التفرقـــة بين العقل والحس ، فالأول ثابت والثاني متغير ، ومما قاله في ذلك أن العقل يوصف بشهادة الحس ، وكذلك الحس يوصف بشهادة العقل ، « الا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى ، وشهادة العقل للحس شهـــادة المولى للعبد » و « العقل يحكم فى الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة من جهة الصور الرفيعة » بالقياس الى الحواس التى تتعلق بالفاسدات البائدات المتغيرات ، وبعد ذلك انتقل الحديث الى مسائل لغوية .

– وفى الليلة السادسة عشرة حـــديث عن الجبر والقدر ، تعليقا على كتاب العامرى المعنون « انقاذ البشر من الجبر والقدر » .

وبهذه الليلة انتهى الجزء الأول من كتاب الامتـــاع والمؤانســـة .

– ويبدأ الجزء الثانى بالليلة السابعة عشرة ، وفيها بحث لغوى عن الكلمات التى على وزن تفعـــال (بكسر التاء) وتفعال (بفتح التاء) .

ثم ينتقل الحديث فيها عن اخوان الصفا ، ويقـــال ان هذا هو النص الوحيد الذى كشف لنا عن افراد هـــذه

الجماعة التى ألفت « رسائل اخوان الصفا » المشهورة فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ثم نقله القفطى ، وعن القفطى نقله كل من كتبوا عن اخوان الصفا ، وعن هذه الجماعة الفلسفية يقول التوحيدى هنا : « وكانت هـذه العصابـة قد تآلفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله والمصـير الى جنته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرهـا الا بالفلسفة .. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسـين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفـة ، علميهـا وعمليهـا ، وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، وكتموا أسماءهم ... » .

عقب على ذلك التوحيدى بذكر بعض الآراء فى تلك الرسائل ، ومنها ما يدحـض قولهم فى أن الشريعة من الفلسفة ، لأن الشريعة وحى الهى ، نسلم بها ولا نعللها ، وهى لا تخضع للمقادير ، ولا تشبه العلم الطبيعى ولا علم الهندسة ، ولا تحتاج الى المنطق ، وعند الاختلاف على شىء فى العقيدة لا نلجـأ الى العـلم « فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ، والعقل وحده لا يكفى ولا بد معه من وحى ينزل على نبى ، والنبى فوق الفيلسوف .

ثم يورد أبو حيان رد المقـــدسى على هذا كله ، « فالشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحــاء » ــ ثم رد الحريرى على المقدسى فى مقارنة الشريعة بالفلسفة . ويورد كذلك رأى أبى سليمان المنطقى القائل بأن الشريعة والفلسفة كلتيهما حق ، دون أن تكون احداهما مأخوذة من الأخرى ، وقد تجتمع الشريعة والفلسفة فى رجل واحـد وقد تظهر كل منهما على حدة .

وينتقل الحديث بعد ذلك الى استطرادات فى الحكمة وفى خصائص الحيوان وغير ذلك .

ــ والليلة الثامنة عشرة حديثها مجون وهزل .

ــ والتاسعة عشرة فيها أقــوال حكمية قرئت عــلى الوزير .

ــ والعشرون تشتمل على أحاديث نبوية .

ــ والليلة الحـــادية والعشرون تتنــاول موضــوع الغناء والموسيقى ، فلماذا تؤثر الموسيقى فى العقل ؟ وفيها حديث عن حاستى السمع والبصر .

ــ وأما الليلة الثانية والعشرون فقد دار الحـديث فيها حول موضوع فلسفى عويص ، هــو موضوع الجزئى والكلى وادراكهما والعلاقة بينهما ، ومن أبرع ما قالــه أبو حيان فى ذلك ــ نقلا عن أبى الحسن العــامرى ــ

« الكلى مفتقر الى الجـــزئى ، لا لأن يصـــير بديمومته محفوظا ، بل لأن يصير بتوسطه موجـــوداً ، والجزئى مفتقر الى الكلى ، لا لأن يصير بتوســطه موجوداً ، بل لأن يصير بديمومته محفوظا (أى أن الكلى بحاجـة الى الجزئى ليتجسد فيه وجودا فعليا ، والجزئى بحاجـة الى الكلى ليدوم) .

ومما قاله فى الكلى والجزئى أيضا أن « ما هو أكثر تركيبا فالحسى أقوى على اثباته ، وما هـو أقل تركيبا فالعقل أخلص الى ذاته » .

وفى هذه الليلة أيضا حديث عن مشكلة الواحـــد والكثير ، وهى مشكلة معروفة فى الفلسفة ، وذات علاقة بالكلى والجزئى ، وفيها أيضا حديث عن أنواع الخطاب : خطاب العاقل للعاقل ، وخطاب العاقل للأحمق ، وحديث عن « العادة » ، وحديث عن الفقر ومعناه الصحيح ، فليس الفقر فى قلة المال ، بل هو فى كثرة الشهوات وان كثر المـــال .

- وفى الليلة الثالثة والعشرين روايات عن النبى عليه السلام .

- وفى الرابعة والعشرين احـــاديث عن الحيوان والنبات : أين تكون مواطنها وما طبائعها ؟ ثم حديث عن الروح والنفس .

وأما حديث الليلة الخامسة والعشرين فمنظارة بارعة فيها موازنة بين النظم والنثر ، فبعد مقدمة طريفة عن كون الحديث فى موضوع النظم والنثر كلاما على كلام « والكلام على الكلام صعب ... لأنه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ، ولهذا شق النحو وما أشبه النحي من المنطق ، وكذلك النثر والشعر » .

ثم رويت آراء تحبذ النثر وتفضله على الشعر : فالنثر أصل والنظم فرعه ، والكتب المنزلة منثورة ، والوحدة أظهر فى النثر منها فى الشعر . والنثر طبيعى والشعر صناعى ، وترتيب الكلام فى النثر لا يحتاج الى تكلف ، والنثر من قبل العقل ، ونجوم السماء منثورة . والأحاديث النبوية نثر .

وبعد ذلك رويت آراء فى تفضيل الشعر ، فله صناعة تقتصر على القلة ، أما النثر ففى وسع الجميع ، والنظم صالح للغناء والحداء ، وشواهد النحو واللغة لا توجد الا فى الشعر والشعراء هم الذين ظفروا بجوائز الخلفاء .

وتختم المحاورة برأى معتدل ، فلكل من الشعر والنثر فضائله ، ولكل منهما بلاغة .

– وفى الليلة السادسة والعشرين مجموعة من أمثلة .

– وتروى الليلة السابعة والعشرون مجموعة من قصص ونوادر تدل كلها على أثر المصادفات فى مجرى الحياة ، ثم تحكى عن الفأل والطيرة ·

– وفى الثامنة والعشرين ذكر طائفة من أصحاب الطرب ·

وفى التاسعة والعشرين وفى الثلاثين بحوث لغوية ·

– وفى الحادية والثلاثين كلام فى الحرب ، وكلام فى العقل والجنون ·

وبهذه الليلة ينتهى الجزء الثانى ·

– ويبدأ الجزء الثالث بالحديث عن الطعام والطعمين ، فيدور الحديث فى ذلك خلال ثلاث ليال : بقية الليلة الحادية والثلاثين ، ثم الليلة الثانية والثلاثين ، والثالثة والثلاثين ·

– وفى الرابعة والثلاثين حديث عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم فلا بد للحاكم العاقل أن يفتح صدره لما يقوله الناس عنه ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم هى كالعلاقة بين الوالد وولده ··· الخ ·

– وفى الخامسة والثلاثين حديث فى الجبر والاختيار ، وفى الحب والشهوة ، وفى النفس والروح ·

ـ وتدور الليلة السادسة والثلاثون حول بحوث لغويـــة ٠

ـ والسابعة والثلاثون حول بعض الصفات الخلقية وتحديد عناصرها المكونة لها ٠

ـ وفي الثامنة والثلاثين ، والتاسعـــة والثلاثين ، والأربعين نوادر وأحاديث فيها فطنة وسرعة خاطـــر

ويختم الكتـاب برســـالتين يوجههمـــا أبو حيان التوحيدى الى الوزير ، ثم برجاء يوجهه الى أبى الوفـاء المهندس متوسلا مستغيثا ٠

نصوص مختـــارة

١ ـ في خصائص العرب :

ان العرب أهل بلد قفـــر ، ووحشـــة من الأنس احتاج كل واحد منهم في وحدته الى فكره ونظره وعقله ، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شيء بسمته ، ونسبوه الى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه ، وأوقاته وأزمنته ، وما يصلح منه في الشاة والبعير ثم نظروا الى الزمان واختلافـه ، فجعلوه ربيعيا وصيفيا ، وقيظيا وشتويا ، ثم علـموا ان شربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الأنواء ، وعرفوا تغير الزمـان

فجعلوا له منازله من السنة ، واحتاجوا الى الانتشار فى الأرض ، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها ، فسلكوا بها البلاد وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم فى الجميل ، ويتجنون به على الدناءة ، ويحضهم على المكارم ، حتى ان الرجل منهم وهو فى فج من الأرض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئا ، ويسرف فى ذم المساوى فلا يقصر ، ليس لهم كلام الا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ولا يتأدبون ، بل نحائز (أى طبائع) مؤدبة ، وعقول عارفة ، فلذلك قلت لكم : انهم أعقل الأمم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر وذكاء الفهم . (ج ١ ص ٧٢) .

٢ ـ صور لبعض رجال الفكر فى عصره :

(وردت فى حديث الليلة الثانية)

... أما شيخنا أبو سليمان (المنطقى) فانه أدقهم نظراً ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز

وأما ابن زرعة فهو حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى العربية جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة ، ليس له فى دقيقهــا منفذ ، ولا له من لغزها مأخذ ، ولولا توزع فكره فى التجــارة ، ومحبته فى الربح ، وحرصه على الجمع . وشدته على المنع لكانت قريحته تستجيب له ، وغائمته تدر عليه ، ولكنه مبدد مندبد ، وحب الدنيا يعمى ويصم .

وأما ابن الخمار ففصــيح ، سبــط الكــلام ، مديد النفس ، طويل العنان ، مرضى النقــل ، كثير التدقيق لكنه يخلط الدرة بالبعرة ، ويفسد السمين بالغث ، ويرقع الجديد بالرث ، ويشين جميــع ذلك بالزهــو والصلف ، ويزيد فى الرتم والسول فما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص ، وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف ، وما يصفيه بالصواب ، يكدره بالاعجاب ، ومع هذا يصرع فى كل شهر مرة أو مرتين .

وأما ابن السمح ، فلا ينزل بفنائهم ، ولا يسقى من انائهم ، لأنه دونهم فى الحفظ والنقل والنظر والجدل وهو بالمتبع أشبه ، والى طريقة الدعى أقرب ، والذى يحطه عن مراتبهم شيئان : أحدهما بلادة فهمه ، والآخر حرصه على كسبه ...

وأما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وعيى بين أبيناء ، لأنه شاذ ، وأنا أعطيته فى هذه الأيـــام « صفو الشرح لا يساغوجى » وقاطيغوريـــاس من تصـنيف صـديقنا بالرى ، قال : من هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غــلام أبى الحسن العامرى ، وصححه معى ..

فقال (الوزير) : يا عجبا لرجـل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيميائى الرازى ، مملوك الهمـــة فى طلبه والحرص على اصابته ، مفتونا بكتب أبى زكريـا وجـابر ابن حيان ، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبة فى خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت فى حاجاته الضروريـــة والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق ، وأوطار فى غرضها تجتمع وتفترق والنفوس على فواتها تذوب وتحترق ، ولقد قطن العامرى خمس سنين جمعـــة ، ودرس وأمـلى وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه جينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا التوانى الصاب والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله وبعد ، فهو زكى حسن الشعر نقى اللفظ ، وان بقى فمساه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع

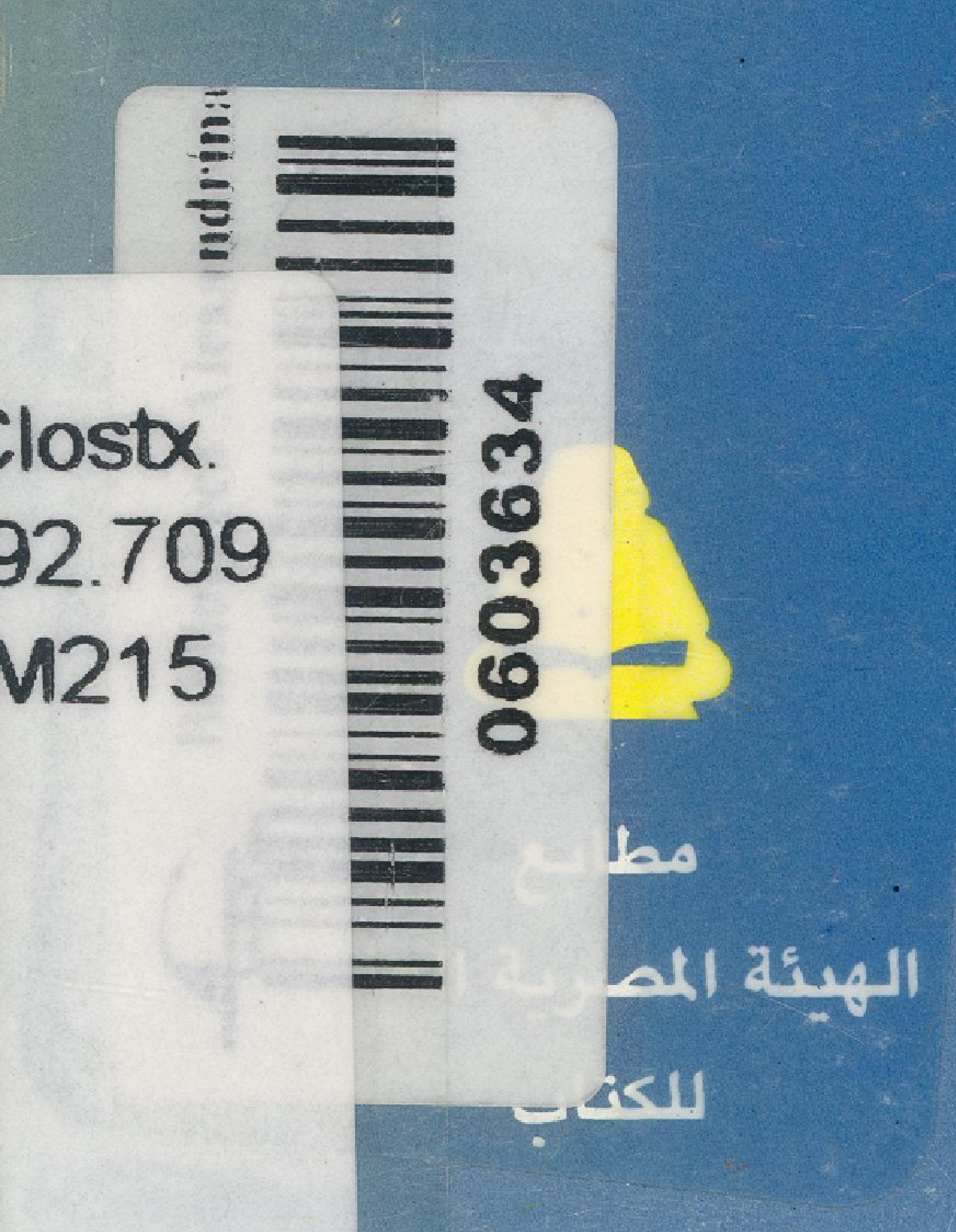
كلفه بالكيمياء ، وانفاق زمانه وكد بدنه وقلبه فى خدمة السلطان ، واحتراقه في البخل بالدانق والقيراط والكسرة والخرقة ، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وايثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل ، وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بلى به والبلاء المعصوب بناصية من غلب عليه ... » .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٤٥

ISBN — 977 — 01 — 4416 — 9

مكتبة الأسرة





بسعر رمزى
خمسة وعشرون قرشا
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

مطابع
الهيئة المصرية ا...
للكتاب